بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، محمد وآله الطيبين الطاهرين

واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾[1]

البحث الثاني في الآية المباركة هو: البحث حول الحكمة في القرآن الكريم، وفي المقام عدة محاور:

المحور الأول: في الفرق بين الحكمة الإنسانية والحكمة الإلهية.

إن الحكمة تتقوّم بثلاثة عناصر:

١ – الغاية.

٢– كون الغاية من المصالح العقلائية العُليا.

٣– كون الفعل مؤدياً لتحقيق الغاية.

فما لم تجتمع العناصر الثلاثة لا يكون الفعل حكمة ولا يكون الفاعل حكيماً، مثلاً إذا كان الإنسان يريد أن يدرس في الحوزة العلمية فلكيْ يكون عمله حكمة لابد أن يتوفر على هذه العناصر الثلاثة، فلو جاء الطالب إلى الحوزة العلمية للدراسة من دون غاية فالفعل لغو وليس حكمة وكذا إذا كانت له غاية ولكن غايته لم تكن تصب في المصالح العُليا، بمعنى أن هدفه من الدراسة أن يكون عالماً وحسب أو أن يُلم بالمعلومات المتعلقة بالدين الحنيف فهذه ليست حكمة، بل لا بد أن تكون غايته من الغايات العُليا كي يكون عمله حكمة، كأن يكون هدفه من الدراسة أن يكون من العلماء المدافعين عن الدين ومعارفه وذاباً عن مذهب أهل بيت العصمة –صلوات الله عليهم أجمعين– وناشراً لعلومهم ومعارفهم.

وبعد المفروغية عن كون الغاية من الغايات العُليا لابد أن تكون الدراسة بنظامٍ يؤدي إلى هذه الغاية، فلو

---

(١) لقمان ١،٢.

لم تكن الدراسة في إطار النظام الذي يؤدي لحصول هذه الغاية كان العمل عبثاً وليس حكمة.

ولأجل معرفة أن الفعل ذو حكمة أو ليس بذي حكمة لابد من مطابقته مع نظام المصالح الإنسانية العليا فإذا كان الفعل متطابقاً مع نظام الأهداف والمصالح العليا اعتبر حكمة واعتبر الفاعل حكيما وإلا فلا.

هذا بالنسبة للحكمة الإنسانية وأما الحكمة الإلهية فحقيقتها تختلف، فعندما يُقال: الله حكيم، والله له حكمة، فما هي الحكمة الإلهية؟

نقول في مقام الجواب: إن حكمة الله هي فعله وليس شيئاً آخر، وهذا يختلف عن الحكمة البشرية فإن الحكمة البشرية حقيقتها هي الفعل المطابق للمصالح الانسانية العُليا أو للغايات العقلائية العليا بينما حكمة الله هي نفس فعله، وذلك لوجهين:

الوجه الأول: إن علم الله تبارك وتعالى ليس علما حصولياً كما هو شأن البشر، فإن الإنسان يوجد في عقله خارطة للمصالح العُليا، ويقوم بتطبيق فعله على تلك المصالح العليا المعلومة عنده وبهذا يكون فعله حكمة، والله تبارك وتعالى علمه حضوري، فعلمه الفعلي هو عبارة أخرى عن نفس فعله، أي أن علم الله تبارك وتعالى بجميع الموجودات عبارة عن حضور نفس تلك الموجودات في ساحة سلطانه لا أن لله صورا لتلك الموجودات يقوم بتطبيق الوجود عليها.

الوجه الثاني: لا ريب أنه ليس وراء فعل الله واقع يطابق به فعله كما في الإنسان، فإن وراء فعل الإنسان واقعاً فيلاحظ هل يتطابق فعله مع ذلك الواقع الذي هو عبارة عن نظام المصالح والأهداف العليا، فإذا تطابق مع الواقع كان حكمة وإلا كان عبثاً ولغواً، بينما بالنسبة لله تعالى ليس وراء الوجود الذي أبدعه واقع آخر حتى يُطابق فعله مع ذلك الواقع.

والنتيجة: ليست حكمة الله عبارة عن تبعية أفعاله للمصالح، أو مع الأهداف كما في حكمة الإنسان، بل حكمته تعالى هي فعله؛ لأن فعله هو منشأ المصالح لا أن فعله مطابق للمصالح، فالمصالح تابعة لفعله، لا أن فعله تابع للمصالح لذلك نقول بأن حكمته تعالى فعله وليس شيئاً آخر.

ومن هنا صح تعليل أفعال الإنسان ولم يصح تعليل أفعال الله تبارك وتعالى، لأن وراء فعل الإنسان واقعاً؛ لذلك يصح تعليله فيقال ما العلة في فعله؟ فيقال لأن فعله مطابق مع المصالح الواقعية، وأما بالنسبة لفعله تعالى فلا يصح تعليله كي يقال ما العلة في فعله، فإن فعله هو مصدر التعليل والسببية لسائر المصالح

ولسائر الأهداف.

ومن هنا نفهم معنى الآية المباركة: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ الأنبياء (٢٣)، باعتبار أن فعله هو مصدر المصلحة فلا معنى للسؤال عن العلة في فعله، بخلاف فعل غيره فإنه لا يكون حكمة حتى يكون مطابقا للمصالح الواقعية لذلك يصح السؤال عن علة فعل غيره.

ومن هنا أيضا نفهم قوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ البقرة (١٤٧)، فإنه ليس وراء فعله شيء اسمه الحق بل الحق هو عين فعله، لا أن فعله يكتسب الحقانية إذا طابق واقعاً وراءه كما هو بالنسبة لأفعال الإنسان.

والنتيجة: إن الفرق بين حكمة الإنسان وحكمة الخالق أن حكمة الإنسان فعل معلل بمطابقته للواقع بينما حكمة الله هي نفس فعله الذي هو الخير المحض، ولذلك ذكر جملة من المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ آل عمران (٢٦)، أن معنى الآية المباركة أن لا خير إلا من فعله، ولا يمكن أن يستند الخير إلى غيره؛ لأن الآية علّلت فقالت: (إنك على كل شيء قدير) فبما أن قدرته تعالى تسع كل شيء فكل خير مقدور له، وإذا كان كل خير مقدوراً له فلا يتصور وجود خيرٍ إلا وهو مستند إليه، ففعله هو منشأ الخيرات لا أن فعله يكون حسناً إذا كان ناشئاً عن الخيرات.

المحور الثاني: ما هو المعيار في الحكمة الإنسانية.

حيث سبق في المحور الاول أن الحكمة الإنسانية مطابقة الفعل للغايات العُليا، فما هي الغايات العليا التي تكون معياراً لاتصاف فعل الإنسان بأنه حكمة؟

والجواب: أننا تارة نلاحظ المعيار بالنظر الظاهري وتارة نلاحظ المعيار بالنظر الواقعي:

فالنظر الظاهري هو عبارة عن قراءة الحياة قراءة مادية، فإذا نظر الإنسان للحياة على أنها هي عالم المادة فقط وليس ورائها مبدأ ومنتهى، فهذه النظر لعالم المادة وحصر الحياة فيها نظرٌ ظاهري، وعلى أساس هذا النظر ترى الإنسان يصمم أفعاله على طبق المصالح المادية وكأنه لا يوجد إلا هذه الحياة، لكن هذه حكمةٌ بالنظر الظاهري وليست حكمةً بالنظر الواقعي، أما النظر الواقعي فهو الذي يرى أن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا خيط صلة بين مبدأٍ ومنتهىً، ولا واقع لها إلا أنها معنى حرفي وهو كونها مجرد صلة بين المبدأ والمنتهى.

وإذا قرأ الانسان الحياة بأنها صلة بين المبدأ والمنتهى فقد قرأ الحياة قراءة واقعية، وعلى هذا الأساس فلابد أن تكون الغاية من كل أفعاله غاية ترتبط بهذا الخيط الذي يربط بين المبدأ والمنتهى، وعلى هذا الاساس لابد ان تكون الغاية من كل افعاله غاية ترتبط بهذا الخط الطويل الذي يربط بين المبدأ والمنتهى.

من هنا نلاحظ أن القرآن الكريم يُخطئ الإنسان في قراءته للحياة قراءة ظاهرية، فيقول تبارك وتعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ العنكبوت (٦٤)، يعني أن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية التي ينبغي للإنسان أن يقرأ الحياة الدنيا على أنها قنطرة إليها وهذا هو النظر الواقعي، وفعل الإنسان لا يكون حكمة إلا إذا تطابق مع المصالح الواقعية.

ولذلك ورد في الأحاديث الشريفة عن الطاهرين –صلوات الله عليهم أجمعين– حصر الحكمة في هذه المصالح التي تربط المبدأ بالمنتهى، ورد عن زين العابدين –عليه السلام – أنه قال في ضمن كلام له: (ورأس الحكمة مخافة الله تبارك وتعالى)[٢]، وورد عن أمير المؤمنين –عليه السلام– أنه قال: (الحكمة هي الإعراض عن دار الفناء)[٣]، وورد عنه –عليه السلام– أنه قال: (لا تجتمع الشهوة والحكمة)[٤]، فإن الإنسان المسترسل في الشهوات يقرأ الحياة قراءة ظاهرية، بينما الإنسان الذي يقرأ الحياة قراءة واقعية هو الإنسان المتصف بالحكمة.

وورد عن الإمام الصادق –عليه السلام– أنه قال: في تفسير قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ البقرة (٢٦٩) قال: (إن الحكمة المعرفة والتفقه في الدين، فمن فقه منكم فهو حكيم)[٥].

---

[٢] الخصال ج ١ ص ٥٤.

[٣] غرر الحكم: ٣٠٥٢

[٤] غرر الحكم: ٨٩٩٥

[٥] تفسير العياشي ج١ ص١٥١.

ومن الواضح أن المعرفة وفقه الدين غايةٌ تربط المبدأ بالمنتهى، فمن كان له فقه في دينه ومعرفة فقد أوتي الحكمة.

المحور الثالث: ما هو المقصود من وصف القرآن بالحكمة؟

إن الله تبارك وتعالى وصف القرآن بالحكمة فقال: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ يونس (١)، وقال تبارك وتعالى: ﴿يسٓ (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ(٢)﴾ يس (١ – ٢) ، فما المقصود بوصف القرآن بالحكمة؟

هنا ثلاثة احتمالات نذكرها ونعلق عليها:

الاحتمال الأول: إن المراد بالحكمة الإحكام.

والمراد بالإحكام كون القرآن الكريم في أم الكتاب كتاباً لا تصل إليه الأفهام ولا تناله عقول البشر، وذلك استناداً إلى قوله تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٣)﴾ الزخرف (٢ – ٣) ، أي أن القرآن الكريم لّما كان في أم الكتاب كان حكيما، أي محكم لا تصل إليه العقول ولا تناله الأفهام، وإنما وصل القرآن إلى مرحلة التفهيم عندما أُنزل على النبي –صلى الله عليه وآله– باللفظ العربي وبنحو مفصل صار ميسوراً –من حيث فهمه– للعالمين، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[٦] القمر (١٧).

والحاصل أن المقصود بالحكمة هو الإشارة إلى إحكام القرآن في أم الكتاب.

هذا هو الاحتمال الأول، ولكن هذا الاحتمال قابلٌ للتأمل.

والوجه في ذلك: أن الآيات الشريفة حينما عبرت عن القرآن بالحكيم كانت في سياق وصف القرآن الكريم بأوصافٍ لا تنسجم إلا مع القرآن بصورته الأرضية لا بصورته السماوية، كما في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ لقمان (٢) (٣).

وإنما يكون الكتاب هدىً ورحمةً للمحسنين إذا كان بصورته الأرضية لا بما هو محكم في أم الكتاب، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ البقرة (٢)، وكونه هدىً للمتقين فرع وصوله للمجتمع البشري.

---

[٦] والملفت أن هذه الآية تكررت في نفس سورة القمر أربع مرات في الآية ١٧ و٢٢و٣٢و٤٠

كما أن القرآن الكريم أعقب وصف الكتاب بالحكيم بتعجب المشركين من الوحي، فقال تبارك وتعالى: ﴿الٓرٰ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ ثم قال: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ يونس (١) (٢)، فتعقب وصف الكتاب بالحكيم باستغراب المشركين وتعجبهم من نزول الوحي على رجل منهم شاهدٌ على أن المنظور في وصف الكتاب بالحكيم هو القرآن بصورته الأرضية لا بصورته السماوية العليا وهي كونه في أم الكتاب

الاحتمال الثاني: أن المراد بوصف القرآن بالحكيم أنه المحكم الذي لا خلل في مضمونه ولا خلل في أسلوبه، ومعنى أنه لا خلل في مضمونه أن القرآن الكريم بمعارفه ومضامينه ليس من لهو الحديث فإن هناك فرقاً بين لهو الحديث والحكمة، حيث أن لهو الحديث الذي تحدث عنه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ لقمان (٦)، هو الحديث الذي يخرج الإنسان عن واقعه ويجعله متعلقاً بعالم الخيال كالغناء والشعر والفن فإنه قد يخرج الإنسان عن الواقع إلى عالم الخيال، فلذلك عُبر عنه بلهو الحديث، بينما القرآن الكريم وصف نفسه بقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ الحاقة (٤١)، وفي موضع آخر وصف نفسه بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ الطارق (١٤).

وذلك يعني أن القرآن ليس من لهو الحديث الذي يُخرج الإنسان عن واقعه إلى عالم آخر، بل القرآن حكمة لأنه يربط الإنسان بالغايات الإنسانية الواقعية التي تُعرّف الإنسان بمبدئه ومنتهاه.

هذه جهة من جهات إحكامه، ومن جهة أخرى أنه لا خلل في أسلوبه، فالقرآن جمع المعارف كلها بمنظومة واحدة لا يختلف أولها عن آخرها، ولا آخرها عن وسطها، قَالَ الله جَلَّ وعلا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ النساء (٨٢).

فحيث لا خلل في مضمونه ولا خلل في أسلوبه كان مُحكماً فصح اتصافه بالكتاب الحكيم.

الاحتمال الثالث: ذكر الرازي في التفسير الكبير قال أن معنى وصف القرآن بالحكيم يعني ذا حكمة، كما قال تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ الحاقة (٢١)، أي ذات رضاً، وقال الطبرسي رحمه الله في مجمع البيان:

(الحكيم لأنه مظهر للحكمة وناطق بها)، ولكن كلا التفسيرين فيهما بعد عن الواقع بل القرآن هو الحكمة لا أنه ذو حكمة، والوجه في ذلك:

إن الله تبارك وتعالى هو الحكيم وفعله حكمته –كما قررناه سابقاً– وبما أن القرآن فعله تبارك وتعالى فالقرآن هو عين الحكمة، لا أنه شيءٌ ذو حكمة ولا أنه مظهر ناطق عن الحكمة بل القرآن هو الحكمة، والوجه في أن القرآن هو الحكمة:

إن القرآن بمعارفه الخمسة –حيث قسم العلماء معارف القرآن إلى خمسة أقسام– وهي:

١–المعارف العقائدية: وهي التي ترتبط بالمبدأ والمعاد والنبوة والإمامة والعدل.

٢– المعارف القيمية: وهي ما يرتبط بتفاصيل الأخلاق والقيم وتهذيب النفس.

٣– المعارف التاريخية: وهي عبارة عن قصة الإنسان من يوم آدم إلى يوم نبينا –صلى الله عليه وآله– من أجل بيان سنن التاريخ والسنن الاجتماعية.

٤– المعارف التشريعية: وهي عبارة عن خمسمائة آية تعرضت لأحكام العبادات والمعاملات.

٥– المعارف الوعظية: وهي المعارف التي تُعنى بالعلاقة الروحية العبادية بين الإنسان وبين ربه.

فهذا الكتاب المؤلف من هذه الأصناف الخمسة للمعارف التي جمعها في نسق واحد كالماء الجاري الذي لا تختلف أبعاضه ولا تختلف تفاصيله، استطاع بهذه المجموعة والمنظومة من المعارف أن يكون منبعاً للحكمة، وأن يجعل الإنسان المتدبر فيه إنساناً حكيماً.

وهنا ثمة سؤال نطرحه ونجيب عنه، وحاصله: إذا كان القرآن هو الحكمة فما هو الوجه في عطف الحكمة على القرآن؟ كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ البقرة (٢٣١)، وكما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ آل عمران (١٦٤)، وكما في قوله تعالى: وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ النساء (١١٣).

والجواب: إن هذا من باب عطف الصفة على الموصوف للإشارة إلى اختلاف المنشأ، فالقرآن هو الموصوف والقرآن كما وُصف بالكتاب وُصف بالحكمة، فهو من حيث كونه مجموعةً من التشريعات التي

سجلت وُرسمت في أم الكتاب قبل نزولها على النبي -صلى الله عليه وآله- اتصف بكونه كتاباً، وبلحاظ أنه منظومة من المعارف تفيض حكمة وهداية للإنسان اتصف بكونه حكمة، وإلا فالله تعالى أنزل على رسوله -صلى الله عليه وآله- وحياً واحداً لكن ذلك الوحي اتصف بكونه كتابا واتصف بكونه حكمة ولكن بلحاظين مختلفين.

والحمد لله رب العالمين.